البابُ الأول: العصر الجاهلي

الفصل الأول

نشأة اللغة العربية

اللغة العربية إحدى اللغات السامية، انشعبت هي وهن من أرومة واحدة نبتت في أرض واحدة. فلما خرج الساميون من مهدهم لتكاثر عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط، وزاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة.

ويقال: إن أحبار اليهود أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه في أثناء القرون الوسيطة، ولكن علماء المشرقيات من الأوربيين هم الذين أثبتوا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة علمية لا إبهام فيها ولا شك.

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والكنعانية والعربية، كما يردون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية. فالآرامية أصل الكلدانية والآشورية والسريانية، والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية، والعربية تشمل المضَرية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة. والراجح في الرأي أن العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم، لأنها بانعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغير تبعاً لأحوال العمران.

وليس في مقدور الباحث أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء. والنصوص الحجرية التي أُخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الغناء؛ وحدوث هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحْدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأدلة العقل والنقل، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين، فكان من الطبيعي أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال، ومن كثرة

الحل والترحال، وتأثير الخلطة والاعتزال، واضطراب في اللغة كالترادف، واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال والبناء والإعراب، وهَنات المنطق كعجعجة[1] قُضاعَة، وطمطمانية حِمْير، وفحفحة هذيل، وعنعنة تميم، وكشكشة أسد، وقطْعَةِ طيء، وغير ذلك مما باعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يتفاهم أهلها ولا يتقارب أصلها.

ولغات العرب على تعددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين: لغة الشمال ولغة الجنوب. وبين اللغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف، حتى قال أبو عمرو ابن العلاء: (ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا). على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداهما بمعزل عن الأخرى، فإن القحطانيين جلوا عن ديارهم بعد سيل العرم – وقد حدث عام 447م كما حققه غلازر الألماني – وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة، وبما كانوا عليه من رقي، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام، كما أخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن. فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يُقَرِّب بين اللغتين في الألفاظ، ويجانس بين اللهجتين في المنطق، دون أن تتغلب إحداها على الأخرى، لقوة القحطانيين من جهة، ولاعتصام العدنانيين بالصحراء من جهة أخرى. وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس للميلاد، فأخذت دولة الحميريين تدول وسلطانهم يزول بتغلب الأحباش على اليمن طوراً وتسلط الفرس عليه طوراً آخر. وكان العدنانيون حينئذ على نقيض هؤلاء تتهيأ لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال، بفضل الأسواق والحج، ومنافستهم للحميريين والفرس، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب والتجارة، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير الذليلة المغلوبة، ثم جاء الإسلام فساعد العوامل

---

(1) **العجعجة:** قلب الياء جيماً بعد العين وبعد الياء المشددة فيقولون في الراعي: راعج، وفي كرسي: كرسج. **والطمطانية:** جعل أم بدل أل في التعريف فيقولون في البر. أمبر، وفي الصيام: أمصيام. **والفحفحة:** جعل الحاء عيناً فيقولون: أهل الله العلال، بدل: أهل الله الحلال. **والعنعنة:** إبدال العين من الهمزة إذا وقعت في أول الكلمة. فيقولون في أمان: عمان. **والكشكشة:** جعل الكاف شيناً في الخطاب المؤنث فيقولون في عليك: عليش. **والقطعة:** حذف آخر الكلمة فيقولون يا أبا الحسا في الحسن.

المتقدمة على محو اللهجات الجنوبية وذهاب القومية اليمنية، فاندثرت لغة حمير وآدابهم وأخبارهم حتى اليوم.

لم تتغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب، وإنما استطاعت كذلك أن تبرأُ مما جنته عليها الأمية والهمجية والبداوة من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمها:

(1) الأسواق: وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتَّسوُّق وينتقلون من بعضها إلى بعض، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول، والمفاوضة في الرأَي، والمبادهة بالشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل، فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعيه، وطمعاً في تكثير مشايعيه. والرواة من ورائه يطيرون شعره في القبائل وينشرونه في الأنحاء فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته.

وأشهر هذه الأسواق عكاظ[1] ومجنة وذو المجاز. وأولاهن أشهر فضلاً وأقوى أثراً في تهذيب العربية. كانت تقوم هلال ذي القعدة وتستمر إلى العشرين منه، فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج. وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج، لأنها متوجَّهُهُم إلى الحج، ولأنها تقام في

---

(1) عكاظ: قرية بين نخلة والطائف. بينها وبين مكة ثلاث مراحل اتُخِذَت سوقاً سنة 540 الميلاد، ثم بقيت في الإسلام إلى أن نهبها الخوارج سنة 129هـ. **ومجنة:** موضع أسفل مكة على أميال منها. **وذو المجاز:** بمنى خلف عرفات. وقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال هذه المجاوم باحتشادهم في الجمناسيوم للألعاب البدنية الأولمبية التي كانوا يقيمونها كل أربع سنين كلما حجوا هيكل المشترى Jupiter في أولمبية. وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم في أثنائها على نحو ما يفعل العرب في الأشهر الحرم. فلما استوثق لهم الأمر وتأيد الملك كانت عاقبة أمرها أن أصبحت أندية لإنشاد أشعارهم وعرض أفكارهم. ومن أثر ذلك إطلاق لفظ الجماسيوم على دور التعليم في أوروبا وعلى الأخص في ألمانيا.

الأشهر الحرم، وذلك ولا ريب سر قوتها وسبب شهرتها. وكان مرجعهم في الفصل بينهم إلى محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه.

(2) أثر مكة وعمل قريش: كان لموقع مكة أَثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التواجر من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها في أَسواق الشام بمصر. وكانت جواد مكة التجارية آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة وعيرهم الدَّثر آمنين، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم، وقوة في الفهم، وثروة في المال، وخبرة بأمور الحياة. وهي مع ذلك متجرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالاً وعلى كل ضامر ليقضوا مناسكهم ويشتروا مرافقهم مما تنتجه أو تجلبه. ذلك إلى أن قريشاً أَهلها وأُمراءها كانوا لمكانتهم من الحضارة وزعامتهم في الحج، ورياستهم في عكاظ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران أشد الناس بالقبائل ارتباطاً، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً. كانوا يختلطون بالحبشة في الجنوب، وبالفرس في الشرق، وبالروم في الشمال. ثم كانوا على أثارة من العلم بالكتب المنزلة: باليهودية في يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء، وبالنصرانية في الشام ونجران والحيرة، فتهيأت لهم بذلك الوسائل لثقافة اللسان والفكر. ثم سمعوا المناطق المختلفة، وتدبروا المعاني الجديدة، ونقلوا الألفاظ المستحدثة، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات، فكانت أعذبها لفظاً، وأبلغها أسلوباً، وأوسعها مادة[1]، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فأتم لها الذيوع والغلبة.

---

(1) ذكر صاحب العقد الفريد أن معاوية قال يوماً لجلسائه: أيُّ الناس أفصح؟ فقال رجلٌ من السِّماط: يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رُنَّة العراق، وتياسَرُوا عن كَشْكشة بكر، وتيامَنُوا عن شَنْشَنة تَغْلب، ليس فيهم غَمْغمة قُضاعة، ولا طمطمانيّة حِمْير. قال: مَن هم؟ قال: قومُك يا أميرَ المؤمنين قُريش. قال: صدقتَ، فمن أنت؟ قال: مِن جَرْم. قال الأصمعيّ: جَرْم فُصْحَى الناس.